مراجعة نقدية

يحيى يخلف في "نورما ورجل الثلج"

يصوّر الواقع ويضع عناوين التغيير

غلاف « نورما ورجل الثلج »

« انتهى عهد السحرة والمدجلين .. لا بد ان تحارب والا سينتهي بك الامر جيفه في معسكرات التعذيب تلك هي حقيقه العالم الثالث »

« سارتر »

« ان الاعمال الفنيه تعبر جميعها عن راي في الوجود ، وتترجم عن موقف حيال النظام الاجتماعي القائم ، وعن نقد ، وامل واتجاه ولكن ذلك الاتجاه متولد من العمل الفني نفسه ، ومن كونه صوره للحقيقه . اذ ليس للمؤلف ان يتدخل ليملي حكمه او يفرضه ، بالوقائع التي جاء بها وعرضها لا تحتاج قط الى شفيع » .

« انجلز »

ـ « يحيى يخلف » من الكتاب الذين تشهد لهم الساحه الادبيه بالعطاء . ومن الذين يقال فيهم : واقعيون . وقد قرانا له قبل مجموعته القصصيه الاخيرة « نورما ورجل الثلج » « المهرة » وهي مجموعه قصصية ايضا ، « ونجران تحت الصفر » روايه .

وهنا سوف احاول تشريح مجموعته « نورما ورجل الثلج » ، الصادرة عن « دار ابن رشد » ، والموزعه على ثماني قصص في ١٠٤ صفحات من الحجم المتوسط ، وثمنها ٥ ليرات لبنانيه او ما يعادلها .

وقبل الدخول في عمليه التشريح والنقد ، والوقوف على القيمه الفنيه والمضمونيه لهذه المجموعه . اود الاشارة الى ان هذه المجموعه صدرت عام ١٩٧٧ ، اي في الزمن الذي شهد فيه لبنان ، مرحله انتقاليه من « السلام » اذا صح هذا القول ، الى الحرب .. فكان لا بد ضمن هذه المتغيرات الحياتية ، ان تحمل المجموعة بين طياتها مضمون هذا التحول في المسار الاجتماعي .. ، وهذا ما

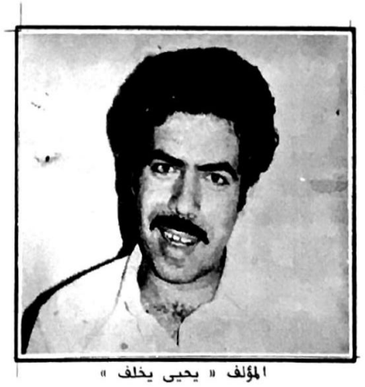

المؤلف « يحيى يخلف »

سنقرأه فعلا في مجموعة « الكاتب » القصصية .

ـ « يحيى يخلف » يتناول التفاصيل اليومية للحرب اللبنانية . لكن هذه التفاصيل لم تسقط الكاتب في دوامة الحزن والبكاء الرثائي على ما تهدم او ضاع بل ان الكاتب يعتبر ان هذه الحالة ، اي حالة الحرب ، هي الشيء الواقع في مجتمع سادت فيه الضغينة ، والحقد والاستغلال . وان الانسان ضمن هذا الثالوث الذي ذكرت ، لا بد له الا ان يصل الى مرحلة انفصامية بين ذاته والمجتمع . لكن هذا الانفصام عند الكاتب يحدث بين الحلم والواقع ، ووسط علاقة جدلية غير منزوية ، وليست غريبة عن الواقع المعاش . بل جاءت الكتابه تعبيرا عن حالة تعاطف مع الاشياء الطبيعية والانسانية . لتترك لك بعدها نافذة تطل منها على السلوكيات اليوميه للمقاتلين اثناء الحرب .

« كانوا يتحدثون ، ويتناوبون على الحرسة ، ويختلفون قليلا ، ويحلمون باجازة في بيروت او السباحه على شاطىء صور ، او لعب الورق في مقاهي صيدا » ...

بهذه البساطه ينقل لنا الكاتب ، مشاهد من حالات اولئك المقاتلين . ضمن رؤيه شاعرية حينا ، ومادية حينا اخر . فجاءت كتابته مزيجا من تعب المناضلين واستراحتهم ، ليشكل بعدها معالم الانسان المقاتل ويعرفنا على سلوكه اليومي ضمن لغة تبسيطية سرديه ، لا تخلو من رؤية المؤلف للثورة داخل الحياة ، ويتم هذا عبر حواراته :

« لماذا غيرنا يحملون جوازات السفر ويمرون عبر الحدود العربية ولا يوقفهم احد ، بينما نحن نحن ويلقى علينا القبض ونسجن في الاقبية » .

نستطيع ان نلحظ هنا كيف استطاع الكاتب ان يعكس حاله التناقض القائمه ما بين الانظمة العربية ، والمقاومة الفلسطينية .

رغبة منه في ان يزيح عن جسد هذه الامة الاسلاك والحواجز الحدودية ، وسط نظرة شاملة لمجمل الصراعات القائمه . ويدفعك من خلال هذه النظرة نحو الحلم والرغبة في التجديد . او في تخطي هذا الواقع الشاذ لتقف بعدها على عتبه « حلمك » .

« هناك .. كانت القمه مكسوة بالثلوج .. هناك عاليا .. عاليا ..

وفوق قمة التله ، كانت غيمة بيضاء كبيرة تمرق مسرعة .

قال المتطوع : غيمة بيضاء مثل الارانب البرية .

وقال يوسف : وانها تسافر ولا تتوقف عن السفر .

وقال ابو اروى : وانها ستحلق في سماء المخيم .

وقال سعيد جابر : غيمة زرقاء وناصعة ، مثل فستان زفاف لامراة طويلة ، وذات عينين زرقاوين ووجه مملوء بالنمش » .

نستشف من هذه القراءة ، ان هناك ادبا انسانيا له جذوره في نفس « يحيى يخلف » ، اذ انه يكتب دون ايه محاوله منه لتغريب القضايا ، مع الاشارة الى ان هذا الوعي هو وعي موضوعي يمتلك التوازن العميق والجارح ، فالكاتب لا يقدم حالة ساكنة بل يشرك الموضوع في التفكير على حساب الواقع ومن خلاله .

انها مرحلة الحرب بكل مضامينها النفسيه ، والاجتماعية ، والاقتصاديه ، انها مرحلة موت من نوع اخر ، وما عليك الا ان تحقق ذاتك ضمن طابعها الانساني المتمرد ، بحثا عن الهدوء والاستقرار داخل الوطن وخارجه . وهذه علامه جديدة في الكتابه القصصيه عند « يحيى يخلف » اذ انها اي الكتابه تضيء الجانب الواسع والمهم ، باتجاه البديل الذي نقاتل لاجله ، وهذا البديل لا يتحقق الا من خلال الحلم ، والعمل لاجل هذا الحلم .

« حلم منذر في غفوته انه يمتطي صهوة حصان ابيض يشبه البراق . حصان بري بلا سرج ولا لجام . تنبت على رقبته الطويله جديله من اشعر الذهبي ، وحوافره مغموله ونسبه قطع الرخام . وحلم انه يطير من على ظهر الحصان في السماء الزرقاء ، ويسوق امامه الغيوم »

هذه القراءه يمكن ان ترينا مدى التاثير عند الكاتب ، من السدود التي تضعها الانظمه العربيه امام الثورة الفلسطينيه . فيتجاوز الكاتب هذه المرحله « بالرمز » الحصان . حيث ان الحصان يرمز ضمن هذا السياق في الكتابه ، الى المغامره والثقه ، والامتداد ، والفروسيه والسعادة ، ويمكن ان نلحظ ايضا ، ان هذه الحاله هي حاله مشروعه ويمكن لمنذر « ان يحلم هنا » لكن على حساب ان يمتد بهذا الحلم صوب الفعل الجماعي المتملىء بالجراة الثوريه والامل بالعطاء .

« لقد حفرت القذائف العديد من الحفر

اين تمتد البراري الان ؟

كنت اشم رائحة العشب واوراق الشجر .

هل ما زالت طيور الشحرور تسبح في الفضاء الازرق ام ان القصف قد افزعها ؟» .

فما هي هذه العصافير انها الفضيله التي سوف يقدر لها ان تطير دون حد . لتحقق بعد هذا الطيران ، وجودها الثابت . والمتحول نحو الافضل والاجمل . « ويحيى يخلف » في هذه القطعة التي ذكرت انفا يمتلك لدرجة كبيرة « الحلم الشعبي » ، وهذا الحلم هو العصافير .

اما في قصته البقاع :

يستطيع الكاتب ان يمسك في هذه القصه الواقع المعاش للطبقه العامله . وذلك من خلال زيارة تقوم بها مجموعه من الفدائيين للقصر الذي يحرسه « ابو حنا » .

انها البرجوازيه التي تدفن حياة الفقراء ، وتدوس على رقابهم في سبيل ان تحقق لذاتها اللذة الزائله والواهنة .

انها مرحله طبيعيه وعاديه جدا عند اولئك العمال، اذ لا يترك الاستغلال في نفوسهم سوى الرضى اللاواعي . لكن حين نطرق ابواب نفوسهم نجد في هذه النفوس خزانات من الحقد ، وتلالا من الغضب يشتعل عند مشاهدتهما اول فسوخ الحريه والتمرد الواعد .

فحين يحس الانسان بغربته داخل حلقة اجتماعية معينة، لا بد ان يعمل جاهدا على تحقيق ذاته داخل هذه الحلقة ، والتي ستستوعبه لا محالة .

« كان الغضب يتشبأ على ملامح ابو حنا ، يتجمع .. يتحول الى قبضة الى كتلة من الوهج » .

ملاحظات اخيرة

يمكن لي ان اعزي نجاح مجموعة « نورما ورجل الثلج » الى عدة اسباب .

اولا : حالة التداعي الواعية في كتابة « يحيى يخلف » .

ثانيا : التقاط الفكرة العامة واعطاؤها خصوصيتها في الحوارات التي تدور بين ابطال قصصه .

ثالثا : ان الادب والفن مرآة الحياة الاجتماعية عنده . وان نتاجه هذا ما هو الا ظاهرة متولدة عن مجمل العلاقات الاجتماعية ، داخل المجتمع . وقد قدر له ان يحقق المستوى الجيد في الشكل والمضمون مع الاشارة الى انه سقط في قصته الاخيرة . « البحر واشجار الليمون وجواد ابيض » في النزعة المثالية ، والتي تحقق في النهاية نصرا اخلاقيا عند ابطال قصته . لكنه رغم ذلك استطاع ان يحتل مكانته فنيا .

ح . ن

قصيدة

وطني
ولو سلخوك عن جلدي

شعر : موسى صرداوي

لا جدار
انت تدرك ان بين الارض
والنجم المسعر في السماء تواصل
ان المسافة لم تعد للفصل
انت الان تدرك ان عودتنا قريبة
مهما تطول
وأينما شرشت في السفر الطويل
تعود للدار الحبيبه
وطني ولو سلخوك عن جلدي
ولو فصلوك
انت العظم واللحم الذي يفديك
والروح النبية
انت لي شجري وزهري
انت قافيتي والهامي وشعري
وأنت تسكنني
واسكن فيك
تلبسني وتكسوني
انا فاديك
نحن منقلبان
في صمد أحد

●●

وطني جذوري انت
لا زمن يفرق بيننا
ومنك اليك دورتي العجيبة

●●

أشهدتني في محنتي والمهزلة
اشهدت قلبي بين سندان ومطرقة
ورأسي في يد الجلاد
يسلمه لنار المقصله

●●

أرأيت شهوته هنا وهناك
في الاردن
في السودان
في أرض الكنانة
في الشام او لبنان
لا احصي الاماكن كلها
لكنني ادري بأن القافلة
مرت على جسدي مجنزرة
مدججة بألوان الشتائم والسلاح
وبكل اسباب الجراح
وطني وهل يدرون ما معنى الخيانه ؟
يبست اياديهم على تاج وكرسي
وما برقت لاعينهم مهانه
ظلوا هنا وهناك جلادين
ينتقمون من صدري وايماني بجذري
وأرى الجدار يقام في سيناء عن حيفا ويافا
باسم الحدود الغادره
واسم الحدود الجائره
وأرى الدم العربي من جرحي وجرحك
يا من تقاوم كل غزو بالاضاحي الثائره
يا صامدا في (غزة) و (الناصره)
يا عابرا بدمشق بعد القاهرة
وأرى اللظى العربي من كفي وكفك

●●

وطني أعود اليك من بؤسي
وادقاعي وفقري
ملء المكان بلا صراخ او قيود
وبدون سوف وما عرفت من الوعود

●●

البحر يعلو ثم أعلوه
ونحمل بعضنا حتى نعود
والشمس تصعد للسماء
ونلتقي في أرض يافا
والنار تصعد للجبال ونلتقي
في موج يافا
والنهر شق النهر درب العمر
حتى قلب يافا
وطني أعود اليك
من ألمي وقهري
انا الفقير ، انا الشهيد
وملن سيرتفع الجدار
لن يدعي التاريخ ان العاصفه
مرت بلا قدم هناك
الغزو لن يحيا
ولو حشدوا اساطيلا
وربان الابادة والهلاك

ابسالا ١٩٧٦